بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 01 أبريل 2021

الفهم البشري لنصوص اللاهوت وآثاره

علي الدباغ
باحث عراقي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2021
All rights reserved © 2021

ملخص:

في بحثِ آثار الأديان -سواء نزلت من السماءِ أو ابتدعها الإنسان- على الأفراد والمجتمعات، نلاحظ أنها منذُ نشوئِها كانت تُلهم البشر بإجاباتٍ عن الغموض الذي كان يُحيط به، والذي كان يشكّلُ مساحاتٍ واسعة في حياة الإنسان لقلة معرفته بما وراء الطبيعة وظواهرها، وكانت تُعبّر عن حاجاتٍ فرضتها طبيعة تلك المجتمعات وحاجاتها، إضافة إلى أن جزءاً كبيرا منها كان ينظر إلى الدين كحقيقةٍ خارجة عن وجوده.

أحدثت المسيحية عند نزولها من السماء أثراً لم يُحدثه أيّ وحي سماوي سبقها من حيث تأثيرها في حياة المؤمنين أو انتشارها، على الرغم من المعاناة التي عانى منها يسوع المسيح وحوارييه ومن خَلَفهُ من الأنبياء الذين كانوا يبشرون برسالته. يتطرق البحث لمناقشة آثار الفهم والتفسير البشري للنصوص المسيحية، والتي تتعاكس أحيانا مع مقاصد النصوص من خلال تفاسير اللاهوت الكنسي للنصوص المقدسة أو لنسبة نصوص ليست من الكتاب المقدس لتعزيز سلطة الكنيسة وسلطة الاستبداد، وكيف أن الكنيسة خرجت من أزمتها الكبرى واستعادت دورها المؤثر في حياة المؤمنين عبر تغيير مقارباتها لظواهر العلم والتطور وخطابها الديني.

تمهيد

في بحثِ آثار الأديان -سواءً نزلت من السماءِ أو ابتدعها الإنسان- على الأفراد والمجتمعات، نلاحظ أنها منذُ نشوئِها كانت تُلهم البشر بإجاباتٍ عن الغموض الذي كان يُحيط به، والذي كان يشكّلُ مساحات واسعة في حياة الإنسان لقلة معرفته بما وراء الطبيعة وظواهرها، وحيث إن الإنسان مسكونٌ باكتشاف تلك الألغاز المُحيّرة التي يعجز عن الخوض فيها، وعلى الرغم من تقبله بالخرافة التي كان يصنعها، والتي كانت تروي بعض الظمأ للأسئلة التي تتجاوز حدود عقله، والتي كانت تُسهم في تسكين بعض الحيرة التي ترافق الإنسان، فالموت مثلاً كان يمثل حقيقة ملازمة وكان يحتاج لإجاباتٍ عنه، وكذلك ما بعد الموت. ونلاحظ في الحضارات القديمة شواهد على دفن حاجات خاصة بجنب الميت؛ لأنه سيحتاجها بعد الموت، وكذلك للريح والمطر والظواهر الكونية المتعددة.

وهذا يتطلب من الباحث أن ينظر إلى تلك الأديان والرؤى قديمها وحديثها نظرة منصفة وإنسانية، باعتبارها كانت تعبر عن حاجات فرضتها طبيعة تلك المجتمعات وحاجاتها إضافة إلى أن جزءا كبيرا منها كان ينظر للدين كحقيقة خارجة وصلت إليه عن طريق عدد كبير جدا من الأنبياء والرسل الذين كان لهم الدور الأكبر في تعديل وتهذيب الكثير من تلك المفاهيم والتفسيرات.

أحدثت المسيحية عند نزولها من السماء أثراً لم يُحدثه أي وحي سماوي سبقها من حيث تأثيرها في حياة المؤمنين أو انتشارها، على الرغم من المعاناة التي عانى منها يسوع المسيح وحواريه ومن خَلَفهُ من الأنبياء الذين كانوا يبشرون برسالته وأكبر معاناة كانت في مواجهتها لليهود وللوثنيين، بينما التفسيرات البشرية للنصوص خلقت فهماً وأثراً يرقى أحيانا إلى التضاد مع مقاصد النصوص، ونتج ذلك من خلال تفاسير اللاهوت الكنسي للنصوص المقدسة أو لنسبة نصوص ليست من الكتاب المقدس لتعزيز سلطة الكنيسة، كما بينها عبد الرحمن الكواكبي (1855-1902) «**إلى درجة يلتبس فيها على العوام الفرق بين الإله المعبود بحق، وبين المستبد المطاع بالقهر، فيختلطان في مضايق أذهانهم من حيث التَّشابه في استحقاق مزيد التَّعظيم، والرِّفعة عن السّؤال وعدم المؤاخذة على الأفعال**».[1]

1 الكواكبي، مصدر سابق تقديم د. اسعد السحمراني ص 47

المبحث الأول: أثر التفسير البشري للنصوص

عانت الديانة المسيحية من التفسير البشري للنصوص، والذي أنتج مفاهيم لا علاقة لها بالنصوص، مما جعلها تتهاوى، ولا تصمد مع العقل والمنطق والعلوم والنظريات التي تطورت لاحقاً، ولا نبغي هنا الدخول في أي نوع من المفاضلة أو النقد لعقائد المؤمنين بقدر ما نعكس آثار الدين وتفسيراته البشرية على الأفراد والمجتمعات، هذه التفسيرات التي كان لها أكبر الأثر في تشكيل الوضع السياسي والديني، وعانت منه كل الأديان، فقد كانت الكنيسة واللاهوت الكنسي منذ تمكنه من أسباب القوة يحاول فرض تلك المفاهيم بالقوة وهذا يعني أن مخالفتها تستجلب العقاب أو في أحسن الأحوال الحرمان الكنسي، واستمر الوضع إلى بداية القرن السابع عشر، والذي بدأت فيه حركة النقد بشكل منهجي مع باروخ سبينوزا وما تبعه في عصر النهضة في القرن الثامن عشر ونشوء محاكم التفتيش المعروفة والمواجهة بين الكنيسة والعلماء والفلاسفة.

إن التحريم والقيود والرقابة الصارمة التي فرضتها الكنيسة على أية مناقشة لتلك المفاهيم، خلق ردة فعل فكرية عنيفة ضد الدين الذي تمثله الكنيسة، ويتمثلها اللاهوتي شارل جنيبير، وهو رئيس قسم الأديان بجامعة باريس: «**لقد ظل المدخل إلى معرفة المسيحية الأولى، حتى منتصف القرن التاسع عشر محرما تحريما باتا عن العلماء المنزهين من الغرض؛ أي على هؤلاء الذين لا يعنيهم استغلال الحقيقة لمصلحة مذهب معين، بل يبغونها خالصة لوجهه، وكان الرأي العام يؤمن بأن دراسة تأريخ المسيحية، إنما هي الساحة التي لا يجول فيها إلاّ رجال الكنيسة وأهل اللاهوت**».[2]

لم تكن المسيحية كعقيدة استثناء مما تعرضت له الديانات الإبراهيمية الأخرى، وخصوصا الإسلامية واليهودية من أزمة الفهم والمنتج البشري لقراءة النصوص، لكن المشكلة الكبرى التي تعرضت لها المسيحية هو التشكيك بأصل النصوص، والتي أخذت حيزاً مهماً في ردة الفعل ضد الكنيسة وسطوتها، وما يهمنا هو التأكيد أن كل تلك الجدالات لا تعني التشكيك في مصداقية النص ومقاصده ومع وجود التناقضات التي عرضها بعض الفلاسفة والنقاد الغربيين؛ فهذا لا يعني غياب الحقيقة ولا يخدش بأصل الإيمان وبحقيقة ورسالة يسوع المسيح.

الجزء الأكبر من فهم المسيحية مبني على العهد القديم، والذي تعرض هو إلى تشكيك أقوى في كل الأسفار الخمسة، اعتمدت الكنيسة على أربعة منها، ونرى ذلك عند مراجعة انتقادات سبينوزا وفولتير وآخرين، والذين تعرضوا لنقد قاسٍ ضد أساسيات تبنتها الكنيسة. ومن ثم جاءت نظريات علمية تبين أنها صحيحة، مثل كروية الأرض لغاليليو ومركزية الشمس لكوبرنيكوس، والذي دحض فكرة أن الأرض مركز

2 شارل جنيبير، المسيحية نشأتها وتطورها، ترجمة الإمام الأكبر عبد الحليم محمود، منشورات المكتبة العربية ص 15

الكون، ونظريات نيوتن التي نسفت الكثير من المفاهيم التي تم ربطها باللاهوت المسيحي، وقد ضحت الكنيسة بسفر التكوين الذي يعدّ أحد الأسفار الأربعة التي اعتمدتها الكنيسة، لكن هذا لم يكن كافياً، فقد انطلق عصر التنوير بقوة لينتج تشكيكاً ومعاندة قاسية لكل تلك المفاهيم القديمة، ومنه نتج فهماً جديداً للدين يتطرق إلى موجات الإلحاد.

المبحث الثاني: محاولات التقويم

حاول بعض اللاهوتيون إيجاد توفيق بين هذا التوجه في معاندة الكنيسة ومفاهيمها، بطرح رؤى توفيقية؛ ومن هذه المحاولات مساهمة الأب اليسوعي هنري بولاد الذي يقول: «**حين نقارن بين قصة الخلق، كما وردت في سفر التكوين، ونشأة الكائنات وارتقائها من خلال نظرية التطور، قد يساورنا الشك في أهمية وجود إله خالق مادامت الأحداث، تتم بطريقة آلية طبيعية، بل قد نتصور أنه لا داعي إلى كائن اسمه الله، مادام التطور قد تكفل بعمل ما يلزم، ومادامت الطبيعة قد اكتفت بذاتها، لكن الحقيقة هي أن هذه المعطيات العلمية، ستساعدنا على اكتشاف مفهوم أدق وأعمق عن الله أولا وعن الخلق ثانيا**».[3]

ويحاول بولاد مخلصاً أن يصحح بطريقة غير مباشرة المأزق الذي خلقته تلك المتبنيات، ويتعرض لنظرية التطور، وأن الخلق يمكن أن يكون من خلال المخلوقات، وأن يشرك المخلوقات في عملية الخلق؛ بمعنى أن الله هو السبب الأول والمخلوقات هي السبب الثاني، مثل عملية خلق الجنين الذي يكون فيه الأبوان السبب الثاني، وأن الله هو الذي وجد الشيء من العدم، وهو الذي يستمر في عملية الخلق والنمو ويتوقف السؤال عن الطفرة التي تحولت فيها المادة إلى حياة، وهي محاولة مخلصة للتقويم لكنها غرقت في محاكاة داروين التي لا تزال نظرياته في التطور والنشوء مجرد نظريات مبنية على فرضيات مادية صرفة لا تعترف بوجود القوة التي أوجدت هذا الوجود والتي تبقى إجاباتها ليست حاضرة لحد الآن.

حاول اللاهوتيون ايجاد مخرج من التباعد الكبير الذي حصل مع الكنيسة والدين المسيحي خصوصاً، ومعظم تلك المحاولات كانت تنبع من حرص مخلص على المسيحية أكثر منها حرصا على نفوذ الكنيسة، لكن بعضا منها سقط في إشكالية ربط التبرير والتصحيح بصورة تلفيقية لم يحالفها التوفيق بسبب التعاكس والتناقض وعدم الانسجام، وكان الأولى التنازل عن كل تلك المفاهيم اللاهوتية التي لم تكن من النصوص، دون التماهي مع نظريات لم ترقَ إلى مستوى الثبوت العلمي والرياضي الذي تمثل في نظريات نيوتن وغاليليو، خصوصا مع نظرية داروين التي بدأ التراجع عنها، وهذا ما أوقع التبريرات اللاهوتية في مشكلة،

3 الأب هنري بولاد، الإنسان والكون والتطور بين العلم والدين، دار المشرق، بيروت، ط 1، 2000، ص 1

وقد انتبه بعض المفكرين المسلمين لهذه الظاهرة في رفض ربط النصوص القرآنية بالمكتشفات العلمية على اعتبار أن القرآن وإن كان قد تعرض لبعض الظواهر مثل دوران الأرض وعدم مركزيتها والكثير من الظواهر الأخرى، لكنه ليس كتابا علميا، بل هو كلمة الله لهداية البشر، ومن الخطأ ربطه بنظريات تتطور يوما بعد يوم، وليس لها دوام الثبات.

وكما يقول المفكر الهندي وحيد الدين خان: «**فقد معارضو الدين اليوم، تلك المكانة التي كانت تسمح لهم بمثل هذه الادعاءات التي لا يزالون يرددونها، زاعمين أن لها أساسا علميا. إن نظرية النسبية وقاعدة الميكانيكا الكمية (كوانتم)، قد أوصلتا العلماء إلى الاعتراف بأنه لا يمكن الفصل بين المُشاهِد والموضوع المشاهَد... ومعناه أنه ليس في إمكاننا إلا أن نشاهد بعض المظاهر الخارجية من أي شيء، وإننا لا نستطيع أن نشاهد حقيقته الجوهرية. إن الثورة التي وقعت في الحقل العلمي في هذا القرن، قد أثبتت أهمية الدين من وجهة نظر العلم نفسه**».[4]

ما حدث بعد حربين كونيتين، هو أن العلم وتطوراته بدأ يكتشف ظواهر لا يمكن للفيزياء ولا علماء الفلك تقديم أجوبة عنها، وأن هناك نظاماً في الكون لا يتقبل احتمالات نسبة الخطأ المسموح بها علميا، وهو من الدقة والضبط، حيث تفسر بأن هناك قوة من وراء ذلك كله، ولم تعد كلمة الطبيعة تصمد أمام سيل من الأسئلة الحائرة، فأي تغيير في القواعد التي ينتظم فيها الكون، لما كان يمكن لأي ظهور للحياة وللبشر والذي تم اعتماده كمبدأ عام 1973 بما يسمى **المبدأ الأنثروبي**، وهو عبارة عن **أطروحة تقول بأن الكون حتمي، حيث تكون معادلاته وقوانينه الطبيعية مناسبة لظهور أنواع حياة ذكية، حيث إنه لو كانت الجسيمات الأولية مثل الإلكترون والبروتون ليست بصفاتها الموجودة (مثل مقدار الشحنة ونوعها وكتلة كل منهما) والقوانين التي تحكمها، لكان من غير الممكن نشأة الحياة على الأرض بما فيها نشأة الإنسان نفسه. والإنسان هو المخلوق الوحيد الذي بمقدوره وصف الكون ومراقبته وتحليله فيزيائياً**[5]. وفي ذات الوقت، بدأ يظهر توجهاً واقعيا من الكنيسة ومن بعض اللاهوتيين بمراجعة جادة لبعض من العقائد التي تمت نسبتها إلى الكتاب المقدس وحتى إلى بعض الكتب المقدسة، والتي اعتبرت شروحا لاحقة للنص، وأصبح التركيز يتجه أكثر إلى القيم السمحاء التي بَشّر بها يسوع المسيح ومن جاء بعده من التسامح والمحبة دون الدخول في تماهٍ أو معاندة للعلوم التي تقفز وتتطور تطوراً لا يمكن للإنسان اللحاق به، ومواجهة المادية والإلحاد التي غرقت فيها المجتمعات المسيحية نتيجة الابتعاد عن قيم المسيحية، وما نتج عنها من أفكار خلقت أزمات

4 وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، ترجمة ظفر الإسلام، مراجعة عبد الحليم عويس، دار النفائس القاهرة، ط 4، 1978

5 ar.wikipedia.org/wiki/مبدأ_إنساني

جديدة لم تعهدها المجتمعات السابقة من الانحلال الخلقي والتفكك الأسري، ومواجهة أفكار مظلمة مثل صراع الحضارات ونهاية التأريخ.

أنتجت هذه المحاولات الجادة تقويما ينبي عن مسؤولية تجاه الإنسان، وكذلك تجاه الخلل الذي أحدثته القرون الخوالي بعد رحيل السيد المسيح وحوارييه، ويصف **روجيه جارودي** في كتابه **نظرات حول الإنسان** بأن المذهب الكاثوليكي وجد نفسه وجها لوجه أمام هذه المتطلبات الجديدة، فكان من الضروري، أن يهيئ نفسه للإجابة عن مشاكل جديدة. ولهذا، فإن ما نشاهده اليوم من حيوية في الفكر الكاثوليكي المعاصر، إنما مرده إلى ما قدمه هذا الفكر من إجابة عن هذه المتطلبات الملحة.

هناك أيضا دراسات جادة انطلقت بموازاة هذا الجهد لمراجعة الأثر الذي خلقه الابتعاد عن الدين بكل أبعاده، والتي أسهمت في إعادة الاعتبار للدين ووضعه وعدم إمكانية الاستغناء عن الاعتقاد الديني كمصدر روحي وقيمي ومعرفي وأخلاقي، وبما يستحقه في سلم المعارف الإنسانية، وتراجعت كثيراً الدعوات العلمية للتخلي عن الدين وبأن الإله قد مات لصالح آراء أكثر قرباً من الدين، بل إن بعضها أسفر عن رؤية قاصرة ومبتسرة ومقطوعة في تفسير ظواهر ورؤية الكون المتخاصمة مع الإيمان بالله. كل ذلك أنتج أن الفعل الديني والمقدس لم ينته في المجتمعات الغربية، رغم التوجه السريع نحو العلمانية والبعد عن الكنيسة.

لقد خطا المجمع الفاتيكاني خطوات تأريخية في اتجاه نوع من المصالحة مع الأديان والعقائد الأخرى، حيث أصدر عام 1965 قراراً بشأن عقيدة خلاص غير المؤمنين: «**تنظر الكنيسة بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد الحي القيوم الرحمن القدير فاطر السموات والأرض.. أنهم يجتهدون في التسليم بكل نفوسهم لأحكام الله، وإن خُفيت مقاصده، كما سلم الله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه، ورغم أنهم لا يعترفون بيسوع إلهًا، فإنهم يكرمونه نبيًا ويكرمون أمه العذراء مريم ويذكرونها في خشوع... وتدبير الخلاص يشمل أيضًا الذين يعترفون بالخالق وفي طليعتهم المسلمون الذين يعلنون تمسكهم بإيمان إبراهيم، ويعبدون معنا الإله الأوحد الرحيم الذين سيدين البشر في اليوم الأخير**».[6]

والجهد الذي يقوم به بابا الفاتيكان، فرانسيس يمثل نقلة كبيرة في التعامل مع واقع يتطور ويتطلب أن تكون هناك مقاربات مسؤولة لما يدور من تداعيات عالمية، حيث قال البابا في زيارته للمغرب في آب 2019: «**إن دور أفراد الطائفة في البلاد ليس محاولة جعل جيرانهم يعتنقون المسيحية، بل التعايش بأخوة مع الأديان الأخرى**». وأضاف: «**لا تنمو الكنيسة بالتبشير بل بالاجتذاب لها، معنى هذا أصدقائي**

6 وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني - تصريح عن علاقات الكنيسة مع الديانات غير المسيحية ص 471، 473

الأعزاء أن مهمتنا كأشخاص معمّدين وقساوسة ورجال ونساء كرسوا أنفسهم للدين لا يحددها عدد أو حجم المساحات التي نشغلها، بقدر ما تحددها قدرتنا على تحقيق تغيير ونشر الرحمة».[7]

وزيارته الأخيرة للعراق في شهر آذار 2021 ولقائه بالسيستاني المرجع الأعلى للشيعة والأثر الذي تركه في تصريحاته بعد عودته، تنبأ بالإيمان الذي يحمله الحبر الأعظم، والذي قاده لتعبيرات لم يطلقها أي كهنوت كنسي في لقائه بالمختلف معه دينيا، مما يشي بأن الإيمان جامع ومشترك وموحد بين البشر، بينما الأديان والعقائد تشكل التمايز بين البشر، وإن مقاربات الكرسي الرسولي تتفاعل مع مستجدات العصر.

ولا ننكر بأن النصف الثاني من القرن العشرين شهد ظهور وانبعاث الأفكار والمجموعات الدينية في المجتمع الأمريكي وانتشارها على نطاق واسع، وكذلك التأثير الذي أحدثته الثورة في إيران وتأسيسها لجمهورية إسلامية وحرب أفغانستان، وعوامل عديدة اخرى حثت حراكاً مجتمعياً لانبعاث صحوة دينية عالمية ما تزال تفاعلاتها وتداعياتها حية.

المبحث الثالث: منافع الدين في الدراسات اللاهوتية

ما يلفت انتباه أي باحث أن الأثر الديني في المسيحية لم يأخذ تلك المساحة الكبيرة في الدراسات اللاهوتية مقارنة بما أخذه عند المسلمين، ويبدو من تلك الأبحاث أنها أفرغت الدين من مفهومه الأساسي، واحتكرت نموذجاً دينياً أحاديا لا يقبل أن يتفاعل مع المختلف معه في القوالب والأفكار التي رسمتها الكنيسة، أو يتجاوز النموذج أو فهم وقبول الظاهرة الدينية التي تتمثل في الإسلام مثلاً، وهذا يعود إلى فهم بعض المستشرقين الذين حاولوا الانتقاص من عقائد الآخرين، أو من رسول الإسلام أو الدفاع عن المسيحية باعتبارها النموذج الأمثل في الأديان، حتى أضحى هذا النمط الفكري شبيها جدًّا بموقف الباحثين اللاهوتيين المسيحيين، ولا ننكر هنا بأن عند بعض المسلمين هذه النزعة التي يتصور البعض أنها تخدم الدين، بينما تزيد التباعد والتثاقف والتفاهم الإنساني.

إن قصور هذه النظرة في الفكر الغربي يكمُن -إضافة إلى استحضار النموذج المسيحي- في أن الفلاسفة الغربيين لم يعتمدوا في دراساتهم على الحقائق التجريبية للأديان؛ أي لم يلتفتوا إلى الدين في جانبه الحي الفعال، وهذا من شأنه أن يخلف خللا منهجيا هائلا؛ فطريقة البحث في فرع معين تنبع من طبيعة الموضوع.

7 www.bbc.com/arabic/middleeast-47768171

لقد اقتصرت الأبحاث الغربية في الأديان على دراسة الآثار التي يتركها الدين كمنفعة، وبهذا عجزت عن ملامسة طبيعة الدين وجوهره. لم يسلم من هذا القصور بعض الباحثين المعاصرين للدين، فبرزت آراء فلسفية عديدة تنظر إلى أثر الدين والمنفعة التي يسعى إلى تحقيقها، وليس إلى ماهيته وطبيعته وأثر الإيمان فيه. ويمكن حصر الأهداف -التي عُني بها الفلاسفة الغربيون- في مجملها وفق المحاور الثلاثة الآتية:

1. **هدف تصوف وعرفان مسيحي:** تميز هيغل ببحوثه العميقة عن التصور الميتافيزيقي مقارنة بالفلاسفة الآخرين، وتجد ذلك في تفسيره للموت كحقيقة حاضرة أمام الإنسان، ويرى أن هدف الأديان هو اتحاد الإله بالإنسان أو تمثله بالإنسان، والتي انتهت بالمسيحية التي هي أفضل تعبير عن ذلك الاتحاد، وهو بهذا الوصف يقترب من جلال الدين الرومي.

واقترب هيغل أكثر من حافظ الشيرازي، ونعتقد أن تعبيرات هيغل قد تأثرت لحد ما بالتصوف الإسلامي وتحديدا في الشعر الصوفي، حيث إن الحب الإلهي الذي يستغرق الإنسان بكليته، ولا يرى في أية جهة من الجهات إلا الواحد الذي يرد إليه كل ما يقع تحت الحواس. إن هذا الحب يشكل المركز الذي لا يكف عن أن يتسع ويشع في كل الاتجاهات.

2. **هدف نفعي:** الدين مستودعا للقيم الأخلاقية ويمد الحياة بروح البقاء؛ فالدين في رأي الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (1724-1804) يسعى إلى تقديم أفضل خدمة لتنظيم علاقات البشر مع بعضهم البعض، ولا يقدر عليه غيره برعايته لأهم مصالح الإنسانية متمثلة في وحدة مشتركة للمنظومة الأخلاقية، يتلاقى حولها بنو البشر، والتي عبر عنها كانط بالقانون الأخلاقي العالمي في «**أسس ميتافيزيقا الأخلاق**». ونحن نكون في أفضل حالاتنا عندما نتصرف على أساس أخلاقي؛ فثمَّة شيء غير بشري أو غير شخصي يكمن في أعماق الذات يجعلها على ما هي عليه. إن الأخلاق أو العقل العملي شأنه شأن العمل الفني مستقل وقائم بذاته، فهو يحمل الغرض منه في ذاته، ويرفض كل منفعة ويزدري كل نتيجة ولا يقبل أي جدل. الأخلاق عند كانط منظومة قائمة بذاتها وهي أعلى من التدين، فقد انطبعت المسيحية أكثر بأبعادها الأخلاقية المطلقة. ونرى ذلك واضحا عند روسو، فالقداسة عنده مغيبة وينظر إلى الدين كوظيفة مجتمعية، فهو ليس غاية ميتافيزيقية أو موضوعاً قائما بذاته، بل هو غاية اجتماعية وسياسية وآلية للحفاظ على مجتمع التعاقد، فاهتمام روسو بالدين هو أن يدفع الفرد في مجتمع العقد لآداء واجباته تجاه القانون وتحقيق الألفة الاجتماعية.

بينما نرى أن نيقولو ميكيافيللي (1469-1527)، نظر إلى الدين أنه يؤدي وظيفة، فليس مهمًّا على الإطلاق أن تكون العقيدة صحيحة أو باطلة، ما دامت تساعد على إضفاء قدر من التماسك الاجتماعي،

«فحيث يوجد الدين يصبح من السهل تعليم الناس على استخدام السلاح، أما حيثما توجد الأسلحة، ولا يكون ثمة وجود للدين، يضحى من الصعب إدخاله ونشره»[8]، وقوله المشهور: **«الدين ضروري للحكومة، لا لخدمة الفضيلة، ولكن لتمكين الحكومة من السيطرة على الناس»**.

يرى الفرنسي **ألكسيس توكفيل** في كتابه **«الديمقراطية في أمريكا»** أن الدين يساعد الأمريكيين على التفكير من خلال إنقاذهم من الشك، فإن الدين ينقذ أي شعب ديمقراطي من حالة التخاذل والعجز التي تنتج عن الشك؛ وإن المسيحية الجماعية كانت عنصراً حيوياً في الثقافة الديمقراطية لأمريكا في القرن التاسع عشر، فقد ظل الدين أحد أهم المؤسسات في المجتمع المدني الأمريكي.

بينما نلاحظ عند المسلمين أن رمزية الدين تكتنز الثواب كعنصر غيبي وآثار وضعية كنتيجة، والأخلاق في المفهوم الإسلامي توازن بين الفرد والجماعة والسماء والأرض، وهناك تلازم في تحقيق سعادة مشتركة للفرد وللمجموع، وهي مرتبطة بالعلاقة مع الله، ولا علاقة لها بالظاهرة الدينية، باعتبارها وليدة المجتمع فهو الذي ينتج الظاهرة الدينية ويوجهها تبعاً لفهمه للأخلاق، بينما يرى الغرب أن العقائد وليس الظواهر الدينية هي من إنتاج مجتمعاتها عبر تغيُّرها وتطورها، وليست من إنتاج أفراد، سواء كانوا كهنة، أو مشتغلين باللاهوت، فهؤلاء نتاج المجتمع، وهم يمثلون المقدس في الحياة الاجتماعية؛ لذلك فإننا لا نكاد نعثر في قاموس علم الأديان المقارن الغربي على مفاهيم حول النبي أو الرسول إلاّ ما ندر؛ لأنه وفق الأطر المنهجية المتبعة يعجز هذا العلم عن شرح هذه الظواهر؛ فيفضي ذلك إلى إقصائها عمدا من قاموسه. وهذا من شأنه أن يخلف نقصا فظيعا في دراسة الظاهرة الدينية بتجريدها من المعاني الباطنية التي تميزها، وبذلك يلغي المعرفة الدينية الخالصة.

3. هدف نفسي وعاطفي: يضطلع الدين بوظيفة سامية في تلبية حاجات نفسية وعاطفية؛ فالممارسات الدينية تملأ المتدين بتلك الحاجة، ولا يبارح هذا التفسير عن الرؤية الغارقة في الحاجة المادية للدين وتبقى محدودة بهذا الإطار الدنيوي.

8 نيقولو ميكيافيللي، مطارحات ميكيافيللي، تعريب خيري حماد، دار الآفاق الجديدة بيروت، ط3، 1982 ص 261

المبحث الرابع: أثر فلاسفة التنوير

في مرور سريع على رؤية بعض فلاسفة الغرب للدين وللإله، وأثر تلك الأفكار كمصدر موازٍ للأفكار التي فرضتها الكنيسة، والتمرد عليها، والآثار التي خلقتها في تفسير النصوص والمفاهيم، فإننا كنموذج نقارب رؤية **باروخ سبينوزا (1632-1677)** (أو بندكتس سبينوزا).

ولد سبينوزا في أمستردام لعائلة يهودية شديدة التدين، لكنه سرعان ما اكتشف الخلل الذي يفرضه الكهنة اليهود في تفسيراتهم للتلمود، فتعرض لعملية اغتيال بسبب آرائه المخالفة للدين اليهودي السائد.

تعرض سبينوزا إلى نفي وحرمان وطرد من المجتمع اليهودي في 27 تموز سنة 1656 من مجلس اليهود الأعلى بأمستردام، وهو يُظهر كيف كان الكهنة اليهود يتصرفون حيال من يخالفهم الرأي، وكيف يتم فرض الحصار عليه، حيث تم وصمه بأنه كافر ومن أولياء الشيطان، ومن المناسب أن نعرض قرار المجلس في حقه، وهو:

«اللعنة عليه، اللعنة عليه في الصباح والمساء، اللعنة عليه في دخوله وخروجه، اللعنة عليه إلى الأبد، فليمسح اسمه من هذا العالم، وليجعل الإله منه معزولا عن اليهود، ولينزل عليه كل اللعنات... وأنتم الذين تعلمون الإله وتعرفونه، اعلموا أنه يحرم عليكم أية علاقة به، لا كتابية ولا كلامية، لا يقدم له أحد خدمة ولا يقترب منه أحد أكثر من أربعة أمتار، لا يجالسه ولا يكون معه تحت نفس السقيفة، ولا أحد يقرأ كتاباته»

يعدّ سبينوزا مفكراُ أخلاقيا وميتافيزيقياً، ومن الرواد الذين أحدثوا أثراً كبيراً في الفلسفة الأوروبية، وخصوصاً مقاربته للقضايا الميتافيزيقية، ويكاد يكون متصوفاً غربياً في استدلالاته عن الله، وهي رؤية عقلانية علمية عن الله والطبيعة والعقل والفكر، حاملة لتجديدات مفاهيمية، وكذلك فتحاً لأفق فكري جديد، ونقدا لبعض المفاهيم اللاهوتية، ولم أستطع أن أرى أي فكر إلحادي عنده (وهو الاتهام الذي وُجه إليه من خصومه اللاهوتيين)، أو تعريفه بأن الله مادي، على الرغم من أن فرضياته كلها تتحدث عن المادة، وهو تعبير استخدمه سبينوزا قد يكون غير مناسبا لتعريف الله حتى حسب المفهوم المسيحي أو اليهودي.

يذكر د. حسن حنفي أن الثورة الحقيقية في الفكر الديني والواقع السياسي هي التي قام بها سبينوزا. فرسالة سبينوزا إذن ثورة على الأوضاع الثقافية والسياسية في عصره، بل وفي كل عصر، وتطبيق للنور الطبيعي في مجال الدين والسياسة، حتى لا يخلط الناس بين البدع الإنسانية والتعاليم الإلهية.

عندما يُعرّف سبينوزا المادة، فإنه ينأى بها عن المحدودية، فالمادة هي «**الكيان الذي (يكون في نفسه) والذي يتم فهم طبيعته من خلال نفسه؛ أي إن فهمه لا يتطلب فهم شيء آخر يجب أن يتكون منه**» لكن كل إثباتاته تتحدث عن الله الوحيد الكامل، وهو واحد.

وفي تعريفه للإله، فهو «**كياناً لا محدودا ولا نهائياً، أي مادة تتكون من خواص لا نهائية، يعبر كل منها عن جوهر خالد ولانهائي**»، «**وهو لا نهائي بشكل تام**»

«**يفهم وجود الإله على أنه حقيقة خالدة، وكذلك الحال بالنسبة لجوهره، وبالتالي لا يتم تفسيره عن طريق الزمان او الوقت، حتى إذا تم تفسير الزمن والنظر إليه على أنه بلا بداية أو نهاية**»[9]

يبين سبينوزا في الفرضيات 15-10 في الجزء الأول عن الله "**إن أي شيء يكون، يكون في الله، ولا شيء يمكن أن يكون أو يتم استيعابه دون الله**" وإن "**الطبيعة الإلهية تمتلك خواص لا نهائية بشكل تام**" (التعريف السادس).

"**يتصرف الله وحده طبقا لقوانين طبيعته، دون أن يقيده شيء**" (الفرضية السابعة عشرة)

"**إن الله وجميع خواصه غير متغير وأبديان**"

في قراءتي للكتاب اكتشفت أن سبينوزا يتحرك بخطوات عقلية هندسية في إثبات وحدانية الله وقدرته ولا نهائيته وأزليته وقدرته، عندما يقارب مسألة وجود الله في فرضياته.

ويلخص سبينوزا رؤيته لله «**إنه يوجد بالضرورة، وإنه واحد، وإنه يكون ويتصرف من ضرورة وجوده، وإنه السبب الحر لكل الأشياء، وإن كل الأشياء تكون في الله وتعتمد عليه، وإن كل الأشياء قد قرر الله لها**». اختلف سبينوزا مع مفهوم ديكارت في موضوع ثنائية العقل والجسد واتجه إلى التفكير في الوجود والروح والفكر والجسد.

عرَّف سبينوزا الجوهر بأنه «**ما هو في ذاته وما يُتصور من ذاته؛ أي الذي لا يتطلب مفهومه مفهوم أي شيء آخر يتكون منه**». وهذا يعني أن الجوهر قائم بذاته، ولم يوجده ولا يحتاج شيئا خارجا عنه ليوجده، وحيث إن كل الأشياء الموجودة حولنا بحاجة إلى أشياء خارجة عنها لتوجد بما فيها الإنسان، فهذا التعريف يختص ومنحصر فيما يسميه سبينوزا الطبيعة أو الإله، وهما تعبيران متلازمان عنده، فإذا نظرنا

9 في كتاب "علم الأخلاق"، عن دار صفصافة للنشر ترجمة مروة المغربي

إلى الألوهية على أنها الضرورة الحاكمة للأشياء، فسوف تصبح بذلك هي الجوهر الحقيقي، وإذا نظرنا إلى الطبيعة على أنها الكل المتجانس المنسجم الذي تحكمه القوانين الضرورية وإلى أشياء الطبيعة على أنها تعتمد كلها على بعضها البعض في تناسق وتوازن، لأدركنا أن الطبيعة هي ذلك الكل الذي لا يعتمد في وجوده إلا على ذاته، أي إن الطبيعة هي الجوهر الحقيقي، وبالتالي ذهب سبينوزا إلى التوحيد بين الإله والطبيعة، باعتبارهما معنيين لجوهر واحد.

بمنهجٍ جديدٍ يستطيع به تقديم أفكاره بصورةٍ منطقيةٍ تُجْبِر قارئها على الاعتقاد بها من دون مُعارضة، وهذا هو المنهج الهندسي الذي يبدأ بِمُسَلَّمات وفروض، ثُمَّ قضايا مُسْتَنْبَطَة منها، وهو الذي اتَّبعه في كتابه الرئيسي «الأخلاق».

ويعرف سبينوزا الصفة بأنها «**ما يفهمه الذهن من الجوهر باعتباره ما يؤسس ماهيته**» الصفة إذن هي ماهية الجوهر. وفي مقابل ديكارت الذي أقر بوجود جوهرين متمايزين ومنفصلين في الكون: الفكر والمادة، يذهب سبينوزا إلى أنه ليس هناك في الكون جوهرين، بل جوهر واحد، وهذا الجوهر الواحد يحمل صفتي الفكر والامتداد في نفس الوقت، وهو لا يذهب إلى أن للجوهر ماهية مزدوجة يجمع بينهما في تضايف، الفكر والامتداد، بل يذهب إلى أن الجوهر الواحد الحقيقي لديه صفة واحدة هي فكر وامتداد. إن الفكر والامتداد شيء واحد عنده.

فكرة الامتداد يبينها سبينوزا هي توحيد للإله مع الطبيعة إلى درجة أن يلحق بالإله صفة خاصة بالطبيعة. يعتقد سبينوزا أن نفي صفة الامتداد عن الإله، سوف توقعنا في صعوبة بالغة، إذ سوف توقعنا في ثنائية الإله الروحي الخالص والعالم المادي، ويكون لدينا إله في جانب وطبيعة مادية في جانب آخر. وحسب مذهب سبينوزا، فإن في الكون جوهر واحد فقط، وإذا نظرنا إلى الكون على أنه إله وعالم؛ فمعنى هذا أننا اعترفنا بجوهرين، جوهر روحي وجوهر مادي.

حاولت المذاهب الفلسفية دائمًا تفسير كيفية صدور المادة من الروح؛ وذلك لاعتقادها في اختلافهما وتمايزهما وتناقضها الأصلي. لكن سبينوزا كان قد سبق وأن وحد بين الروح والمادة. ولأن هناك جوهر واحد فقط في الكون، فيجب أن يكون هذا الجوهر روحيًا وماديًا في نفس الوقت. ولذلك، أصر سبينوزا على أن الامتداد صفة للإله أو الطبيعة حسب تعبيره. الإله عند سبينوزا باعتباره جوهرًا واحدًا لا يمكن أن يفتقر إلى أية صفة، وإذا اعتبرنا الإله روحاً فقط، فسوف يكون مفتقراً بذلك إلى المادة أو الامتداد، وسوف يكون الامتداد صفة خاصة بالطبيعة وتميزها عن الإله. رفض سبينوزا أن يكون الإله باعتباره الجوهر الواحد والوحيد مفتقرًا لصفة الامتداد، وعلى ذلك اقر بأن الإله يمتلك صفة الامتداد. لكن يجب أن نفهم معنى إلحاق

صفة الامتداد بالإله عند سبينوزا على نحو يتفق مع فلسفته. ولكن لا يقصد سبينوزا أبداً ً الامتداد بمعنى كونه حائزًا على جسم معين أو شكل وأبعاد هندسية، ويشغل حيزًا من المكان، إذ لا يقصد الامتداد الجسمي الهندسي المكانى، بل يقصد صفة الامتداد ذاتها بصرف النظر عن أحوالها من الطول والعرض والجسمية والمكانية.

الإله عند سبينوزا ممتد بمعنى أن فكرة الامتداد داخلة في جوهره وماهيته، فلا يمكن أن توجد في الكون صفة ليست موجودة في الإله، باعتباره الجوهر الواحد والوحيد الحقيقي. الامتداد عند سبينوزا ليس امتدادًا شيئيًا جسميًا، بل هو امتداد رياضي، الامتداد هو في جوهره رياضي، وبالتالي فإن الإله باعتباره الجوهر الوحيد يجب أن يكون ممتلكًا لفكرة الامتداد الرياضي الهندسي.

هذا الفهم الملتبس بين الإله والمادة كان يمكن التعبير عنه ببساطة وبيسر وبمفهوم قريب لإدراك العقل البشري لكن الفلسفة دائما تختار الطريق الأصعب لتثير الرغبة في التفكر، وتحث العقل على استكشاف تفسيرات ليست بسيطة.

وعلى هذا الاعتبار، تكون إرادة الله وقوانين الطبيعة شيء واحد؛ لأنهما متلازمان ولا توجد قوة أخرى بينهما، وكل ما يقع من حوادث عبارة عن النتيجة الآلية المحتومة لتلك القوانين الدائمة؛ أي إنها ليست عبثا ولا فوضى.

يقر سبينوزا أن الله هو الطبيعة والطبيعة هي الله. في كتابه «**رسالة في اللاهوت والسياسة**»، شرح معارضته لنتيجة امتلاك الله خواص بشرية. في الفصل الثالث من الكتاب، يقول إن كلمة «الله» تعني نفس كلمة «الطبيعة».: «**سواء قلنا.. أن كل الأشياء تحصل نتيجة لقوانين الطبيعة، أو تحصل بقرار وتوجيه من الله، إننا نتحدث عن الشيء نفسه**». الله والطبيعة، كائن واحد، وشيء واحد، ضروري الوجود، أبدي، لانهائي، ومعمم للكون الذي هو موجود بالمطلق في كل شيء.

فهذا العالم تسيره تلك الإرادة العليا، وليس مخيرا في كثير ولا قليل مما يفرض عليه فرضاً، وليس له عن تنفيذه محيص. والإنسان يسير كذلك في هذه الطريق المرسومة، إلا أنه قد تبلغ به الأنانية حداً بعيدا، فيظن أنه المقصود من خلق هذا الكون الفسيح، وأن هذه الطبيعة وما فيها، إنما وُجدت من أجله ولصالحه، ولكن لا يجوز للفيلسوف بحال من الأحوال أن ينظر إلى العالم هذه النظرة الشخصية الضيقة؛ فالواجب أن نجرد أنفسنا من نزعتنا البشرية، حتى يتسنى لنا أن ندرك الكون مستقلا عنا، بعيدا عما تُمليه أغراضنا، وأن ندرسه دراسة موضوعية كحقيقةٍ عارية لا تؤثر فيها الميول الإنسانية. فلا ننسب الخير والشر لهذا الشيء

أو ذاك؛ لأن الخير والشر نسبيان للبشر، وليس لهما وجود في الواقع، فإذا ما حكمنا على شيء في الطبيعة بأنه عبثٌ أو شر، أو أنه يثير فينا السخرية؛ فذلك لأننا لا نعرف الأشياء إلاّ معرفة جزئية، ولأننا نريد أن تسير الأمور كما نرغب ونحب نحن، وحسب ما تمليه عقولنا؛ لأننا نجهل أن الكون وحدة لا تتجزأ، فما نحكم عليه بأنه شر ليس في الحقيقة شراً بالنسبة إلى القوانين التي تسير الطبيعة بمقتضاها، ولكنه شر بالنسبة إلى طبيعتنا نحن بعد فصلها وانتزاعها من تلك الوحدة الكونية.

فالشر والخير أوهام لا تعرفها الحقيقة الخالدة، لا ولا الجمال والقبح؛ لأنهما كذلك أوصاف اصطلح عليها الإنسان. فالشيء الجميل والشيء القبيح هما في نظر القوانين العامة سواء، ولا تفضيل لأحدهما على الآخر. يجب أن ننظر إلى العالم نظرة مجردة كما ننظر إلى المثلث مثلا، فأنت لا تحكم عليه كما يقع في نفسك، فيكون لك فيه رأي ولي فيه رأي آخر، لا بل ننظر إليه بالنسبة إلى القانون العام المجرد الذي يتحكم في جميع المثلثات على السواء، فيكون المثلث عندك كما هو عندي وعند أيّ إنسان.

فلننظر إذن إلى هذا العالم من وجهة نظر قوانينه الثابتة الشاملة، حتى لا يتغير باختلاف الميول والأشخاص. وهنا نقطة جديرة بالوقوف عندها لأهميتها، يرى سبينوزا أن تلك النظرة الشخصية قد أفسدت علينا فهم الله فهما صحيحا، فأخذنا ننسب إليه صفاتنا نحن؛ لأننا أبصرناه من نافذة نفوسنا، ولم نتجرد لنطل عليه من جانب الحقيقة والواقع، فنحن مثلا نتصور الله في صورة المذكر دائما، ولا نرضى أن نصبغه بصبغة التأنيث، نقول هو ولا نقول هي، وليس ذلك إلا نتيجة لخضوع المرأة لسلطان الرجل، كذلك ننسب إليه كل الصفات التي نراها حسنة كاملة لا من حيث الواقع، ولكن من حيث حكم العقل البشري المحدود بميوله وأغراضه. وقد كتب سبينوزا في ذلك إلى أحد معارضيه يقول: «**إذا اعترضت عليّ بأنني لا أريد أن أصف الله بالنظر والسمع والملاحظة والإرادة وما إلى ذلك من الصفات... فأنت إذن لا تعرف الإله الذي أتصوره وأحسب أنك لا تستطيع أن تتخيل مثلا أعلى من الصفات السالفة الذكر، وإني لا أستغرب منك هذا القصور في الخيال؛ لأنني أعتقد أن المثلث إذا استطاع أن يعبر عن نفسه لقال كذلك أن الله يتميز بصفات المثلث. كما تقول الدائرة أن طبيعة الله دائرية. وهكذا ينسب كل شيء إلى الله من الصفات ما يراها في نفسه**».

الله في فلسفة سبينوزا هو مجموع الأسباب والقوانين جميعا وقوته هي مجموع القوى العقلية الكامنة في كل أجزاء المادة المنتشرة في الزمان والمكان. فلا المادة روحية ولا العقل مادي ولا هما مستقلان متوازيان، إذ ليس هناك شيئان متميزان عقلا ومادة، حتى نبحث عن العلاقة بينهما، بل ثمة شيء واحد فقط وعملية واحدة فحسب لها مظهران أو جانبان، فأنت تراها الآن باطنيا في صورة الفكرة، ثم تراها خارجيا في

صورة العمل. فالعقل والجسم وحدة لا تتجزأ، وكل أجزاء الوجود لها هاتان الشعبتان الممتزجتان المتحدتان، وبعبارة أخرى المادة التي في الكون والروح التي في الكون شيء واحد ذو وجهين، وبعبارة ثالثة، الطبيعة والله شيء واحد، وإذا كان الأمر كذلك من توحيد العقل والجسم؛ أي إن الروح والمادة وجعلهما شيئا واحدا، فلا اختلاف إذن بين الإرادة والذكاء، ما دامت الإرادة هي عبارة عن نزوع الجسم إلى عمل معين، والذكاء هو القوة الفكرية الخالصة، وها نحن أولاء قد رأينا أن أعمال الجسم وقوة الفكر ليسا إلا ناحيتين من حقيقة واحدة.

الإنسان إذن بعقله وجسمه وحدة لا تقبل التقسيم وعماد وجوده هو الرغبة اللاشعورية في البقاء، فالرغبة اللاشعورية في فلسفة سبينوزا هي كنه الإنسان، وكل الغرائز خطط دبرتها الطبيعة/ الإله لحفظ الفرد أو النوع، والسرور والألم ينشآن عن إشباع الغرائز أو تعطيلها، فليس السرور والألم سببا لرغباتنا كما يذهب فريق من المفكرين، ولكنهما نتيجة لها. نحن لا نرغب في الشيء؛ لأنه يسرنا ولكنه يسرنا لأننا نرغب فيه، ولا بد لنا أن نرغب فيه؛ لأنه يشبع لنا الغرائز التي تمهد لنا سبيل البقاء. ولا بد أن يكون القارئ قد سارعت إليه النتيجة الطبيعية لهذه المقدمات، وهي أن ليس ثمة إرادة حرة، وأن الإنسان مجبر على السير في طريق معينة مرسومة ليس له أن يحيد عنها قيد شعرة؛ لأن ضرورات الحياة تحدد الغرائز والغرائز تملي الرغبات والرغبات تخلق الأفكار والأعمال المعينة.

إذن، فإن سبينوزا على الرغم من أنه لا ينكر وجود الحرية، لكنه ينكر وجود الإرادة الحرة أو الاختيار، وهذا مفهوم فيه غموض ولبس كبير، عندما يتم تعميمه على كل الموجودات.

هذا الرأي فيه كلام ويتطلب الوقوف عنده، وهو أن هذا الكلام ينطبق على كل ما في الحياة من وجود عدا الإنسان، فالكل يسير وفق نظام الكون وقوانينه، فقط الإنسان له ميزة تختلف، وإن كان في جزء منه يخضع لتلك القوانين، لكن جزأه الأكبر هو إرادة حرة تحكم تصرفاته وسلوكه، وهنا تنشأ نظرية الجبر والاختيار عند المسلمين، هذه التجزئة ليست تجزئة مادية تبعيضية، بل هي العقل الذي تميز به الإنسان عن باقي الوجود وقد وردت كلمة العقل ومشتقاتها وجذورها حوالي 800 مرة في القرآن، وهناك حديث قدسي لله **عن العقل: لما خلق الله العقل استنطقه، ثم قال له: أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أحب إلي منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب، أما أني إياك آمر وإياك أنهي وإياك اعاقب وإياك أثيب".** [10]

10 الأصول من الكافي – ثقة الإسلام الكليني- الحديث (1) من كتاب العقل والجهل، الجزء 1

يسوق سبينوزا مثلاً عن حجر يسقط من السطح على رأس شخص ويقتله، وينطلق من هذا المثال لدحض رأي مخالفيه، فلسفة سبينوزا تشبه الإنسان في ذلك بقطعة من الحجر الملقى الذي لا بد له من أن يسقط في مكان معين تبعا لقوة الدفعة، فلو فرضنا أن ذلك الحجر الملقى له إدراك كالإنسان لظن أنه يسقط في هذا المكان الخاص وفي هذه الساعة المعينة؛ لأنه يريد ذلك وهذا لأنه يجهل اليد التي دفعته فقسرته على تصرف لا يستطيع أن ينحرف عنه. ويحاول أن يدحض الرأي المخالف الذي ينسب سقوط الحجر إلى الله، وستعمق في طرح الافتراضات فلو قلت أن الحدث كان بسبب هبوب الرياح أثناء سير الرجل في ذلك الطريق بذلك التوقيت، وأن الرياح هبت؛ لأن البحر كان هائجاً وأن الرجل كان مدعواً عند صديق له، فيأتيك التساؤل، لماذا هاج البحر، ولمَ تمت دعوة الرجل في ذلك الوقت، هذا التفكير لا يغير من أصل الفكرة، وهو أن الله بيده كل الوجود، وأن قانون الطبيعة هو الحاكم وهو الناظم، على أننا كمسلمين نعتقد بأن الله يمكن له أن يجنب الرجل المرور بتلك اللحظة في تلك النقطة، إن كانت إرادته وتقديراته كذلك.

وهكذا تخضع أعمال الإنسان لقوانين ثابتة ثبوت القوانين الهندسية؛ ومعنى هذا أن الإنسان جزءٌ لا يتميز من سائر أجزاء الطبيعة بل يندمج فيها ويخضع لناموسها.

الإنسان ظاهرة مادية ككل الظواهر الأخرى، يتحكم فيها ذلك القانون الشامل الذي يكمن وراء الكون جميعا ولا ينفصل عنه، بل يكون معه كلا لا تنفصم عراه.

وباعتبار أن الإنسان جزء من كل فهو خالد؛ ذلك لأن القانون الذي يسيره لا يفنى بفنائه كما قدمنا، بل هو أبدي تظهر آثاره في الأفراد بعد الأفراد. فأنت إذا محوت مثلثا مخطوطا على ورقة أمامك، فليس معنى ذلك فناء القوانين التي تخضع لها المثلثات؛ لأن هذا المثلث المعين الذي محوته لم يكن شخصية منفصلة عن زملائه المثلثات، بل هو يضبط الجميع ناموس واحد لا يعتريه التغير والفناء. وقل مثل هذا تماما في أفراد الإنسان. يموت الواحد ويبقى قانونه ممثلا في سائر الأفراد، وهذا هو معنى الخلود في فلسفة سبينوزا، وهو كما ترى ليس خلود لأفراد، بل خلود لقوة وقانون؛ وذلك يتضمن بالطبع إنكار الثواب في الحياة الآخرة جزاء الفضيلة الدنيوية، وهو يقول في ذلك: «**إن هؤلاء الذين ينظرون للفضيلة كأنها عبودية مفروضة عليهم من الله تعالى، ولا بد أن يمنحهم الله جزاء على قيامهم بهذا الفرض الثقيل، إنما هم أبعد ما يكونون عن فهم الفضيلة على الوجه الصحيح. فالفضيلة أو طاعة الله هي سعادة في نفسها يشعر الإنسان بالطمأنينة والنعيم في أدائها فعلام تنتظر الجزاء؟؟إنك تكون كرجل أسكنه سيده قصرا فخما وأعد له فيه كل ألوان النعيم، فيظل يرتع فيه وينعم، ثم هو بعد ذلك ينظر من سيده أجر البقاء في ذلك النعيم**».

وهذا التنظير يكون الرد عليه ببساطة، ماذا لو كان هذا الرجل الذي يرتع في القصر قد تسبب في تدمير ذلك القصر ولم يحترم قوانينه؟ هل يتساوى مع الشخص الأول؟

ثم ماذا عن الذين دمروا وزهقوا حياة البشر هل يتساوون مع من أينشتاين مثلا أو أديسون؟

النتائج:

أسهمت تفسيرات اللاهوت الكنسي أثراً معاكساً لنصوص ومقاصد الكتاب المقدس، وأنتجت هوة كبيرة في أثر الدين مما خلق اتجاهات معادية للمسيحية، لم تقدم للناس بدائل وأجوبة مقنعة وكأية ردّات فعل، فإنها لم تستطع الصمود أمام حقائق الوجود والحاجة البشرية للدين أو إمكانية الاستغناء عن الاعتقاد الديني كمصدر روحي وقيمي ومعرفي وأخلاقي، وبما يستحقه في سلم المعارف الإنسانية، وما نحاول أن نستنتجه من هذا البحث الموجز بأن المسيحية قد تجاوزت كل تلك المخاضات التي مرت بها والمحنة التي تعرضت لها ابتداء من القرن الثامن عشر، فإنها تمكنت من التعامل مع كل ذلك النقد والهدم بصبر وأناة وتجاوزت تلك الأزمات بمنهج مشهود لها، وهو أن معظم التفسيرات البشرية والشروحات التي خالفت المنطق والعقل والعلم لم يعد لها انعكاس على حياة الأفراد والمجتمعات والدول لا كنظام سياسي فيه الحق الإلهي، أو تلتزم بالترويج لنظريات حكم سابقة، ولا سطوة للكنيسة على الأفكار التي تحررت، ولا على الأفراد كسلوك وانتهجت منهج الترويج للقيم الأساسية التي نادى بها يسوع المسيح قدر ما يمكنها من التحرر، مع بقاء ثوابت مثل التثليث والخلاص؛ لأنها جزء مترسخ في العقيدة؛ وبمعنى أقصر تحولت المسيحية إلى إيمان فردي خالص لا أثر مجتمعي فيه غير طقوس التعميد والزواج.

نلاحظ أيضاً أن هناك انحسارا كبيراً للأفكار الوجودية والمادية التي انتعشت في القرن الماضي، ويرجع جزء منه إلى أن إيقاعات العصر لم تلغِ الحاجة الوجودية والظمأ البشري الذي تاه وضاع في مسالك المادة ومتطلباتها، والتي لم تكن في أي وقت تروي الروح للمقدس.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2021

جميع الحقوق محفوظة © 2021